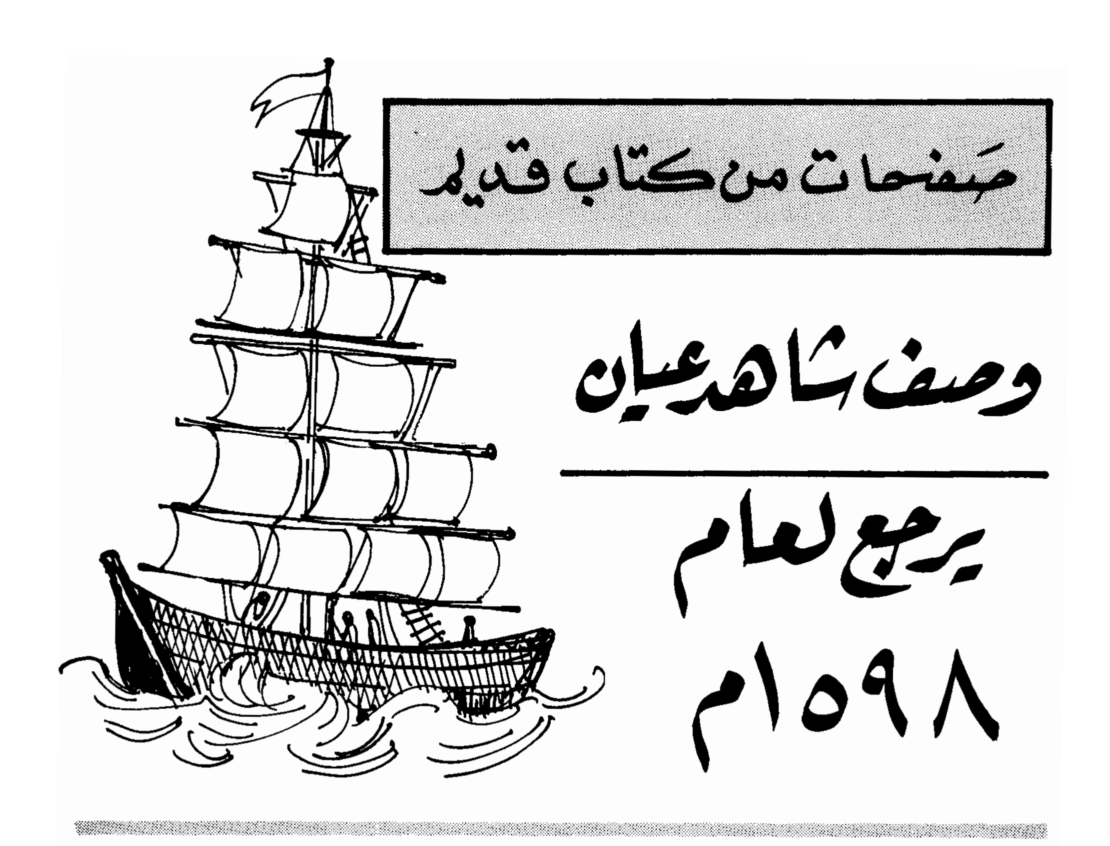


وصف شاهد عيان يرجع لعام ١٥٩٨م

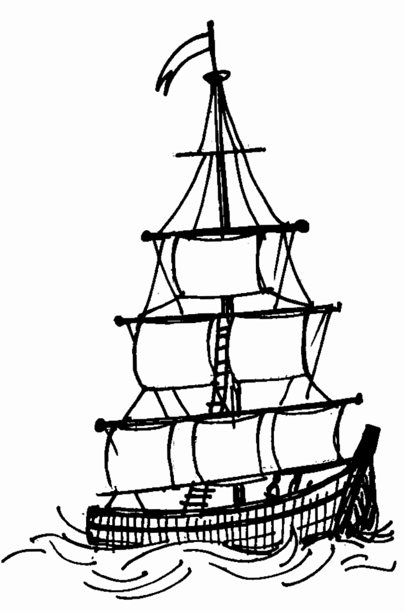
◇

كتاب الرحلات القدماء لهم اسلوبهم الخاص فى الكتابة وفى التعبير . والقراءة فى كتب الرحلات القديمة شائقة ومسلية ومفيدة . من بين هذه الكتب نقدم هذه الصفحات من كتاب (أسفار جون هيوجن فان لنشوتن) الى جزر الهند الشرقية) وقد قدمنا تعريفا بالكاتب على الصفحات السابقة أما الصفحات التى نقدمها فقد حرصنا على ان تكون الترجمة حرفية وهى عن رحلاته عام ١٥٩٨ م والكتاب فى مجلدين اعد المجلد الأول آرثر كوك برتيل وأعد المجلد الثانى بى ـ ايه ـ تيلى . وقد طبعت الكتاب جمعية هكليوت فى لندن عام ١٨٨٥ م والكتاب وضع أصلا بالبرتغالية وقد نقلنا هذه الصفحات عن ترجمة انجليزية قديمة . وقد لا يكون معظم ما ذكره الكاتب دقيقا أو صحيحا وقد يكون معظم ما كتبه مدموغاً بالتعصب ضد العرب والاسلام ولكن هكذا كتب وهكذا أردنا لأجيالنا الحالية ان ترى كيف كان البعض يكتبون .

قال المؤلف :

يتوفر اللؤلؤ فى كافة البلدان الشرقية وخاصة بين هرمز والبصرة فى الخليج فى كل من البحرين والقطيف وجلفار وكامارون وهناك جماعة تابعة لملك البرتغال موجودة فى البحرين بصورة مستمرة لتقوم بصيد اللؤلؤ كما توجد أماكن أخرى لهذا الغرض مثل البحر الواقع بين جزيرة سيلان ورأس كومورن حيث تنتج كمية ضخمة من اللؤلؤ ويتواجد هناك أيضا ممثل لملك البرتغال وهو قبطان ومعه عدد من الجنود . ويكثر اللؤلؤ كيفا وكما فى هرمز .

وقد أبحرت سفينتان برتغاليتان فى مايو ١٥٨٦ م مع مالكيهما من الهند الى البحر الاحمر لكنهما تعرضتا لهجوم من لصوص البحر الاتراك فى السويس مما اخاف التجار الهنود الذين بعثوا ببضائع على متن هاتين السفينتين وفى نفس الشهر اعد البرتغاليون اسطولا كبيرا فى جوا بقصد ارساله الى البحر الاحمر لطرد القراصنة الاتراك وعندما وصل الاسطول الى مدخل البحر الاحمر نشب قتال بينه وبين الاتراك انتصر فيه الاتراك ورجع الاسطول الى هرمز وعين بدرو بيريرا PED-RO PEREIRA قائدا جديدا للاسطول وغادر الاسطول مرة اخرى الى ساحل جزيرة العرب بقصد تأديب القراصنة من قبيلة بنى خالد (١) الذين سببوا خسائر فادحة لسفن وتجارة البصرة وعلم بأنهم تجمعوا فى مكان باسم نيكولا (نخيلة ؟) ونزل البرتغاليون فى نيكولا دون نظام أو انضباط وفى المعارك التى دارت بينهم وبين القراصنة انتصر القراصنة وقتل عدد كبير من البرتغاليين ولم ينج الا ٥٠ منهم وبلغ عدد القتلى ٨٠٠ ورجع قائد الاسطول مرة اخرى الى هرمز بسفن فارغة وشعر البرتغاليون بخزى بالغ بانهزامهم المذل حيث قتل فى المعركة رجال بارزون من البرتغال بما فيهم أخ لرئيس الاساقفة وكبار عمدة المدن البرتغالية ووصلت ملكة هرمز الى جوا وهى مسلمة وآباؤها وأجدادها كانوا تابعين للبرتغال . وقد قبلت المسيحية واختارت اسما جديدا هو دونا فيليبا على طراز ملك اسبانيا كما تبعها أخوها الأصغر وقد أقيم احتفال شامخ بهذه المناسبة وهى ملكة جميلة بيضاء طويلة القامة ووسيمة الوجه ثم غادرت الى اسبانيا لتقدم نفسها الى الملك وقد تزوجت زعيما برتغاليا اسمه انطون دازيدو كوتينو وعقب الزواج منحه الملك رئاسة هرمز بماهية بلغ قدرها أكثر من ٢٠٠٠٠٠ دوكيت سنويا . وغادر انطوان جوا الى هرمز بقصد جمع الضرائب وفى نفس اليوم توفيت الملكة التى لم تتمكن من تحمل فراق زوجها وهكذا لقيت حتفها ولم تمض بعد ستة شهور على زواجها .



---

(١) يلاحظ ان المؤلف يطلق على القوى البحرية المحلية لفظ القراصنة وفاته انهم يدافعون عن بلادهم ومياههم وان القراصنة هم الذين جاءوا من شمال أوروبا الى مناطق ليست لهم .

ان عدن من أجمل وأقوى المدن فى جنوب الجزيرة العربية وهى محاطة بواد من جهة وجدران متينة وجبال من جهة اخرى وفيها ٥ قلاع وبها مخزون من الذخائر ويحرسها الجنود وتستمد المدينة أهميتها بسبب السفن العديدة التى تمر بها وتحتوى المدينة على ٦٠٠٠ منزل حيث يمارس فيها الهنود والفرس والاثيوبيون والاتراك اعمالهم وبسبب شدة حرارة الشمس بالنهار تتم الصفقات التجارية ليلا ويسكن محافظ المدينة فى قصر بنى من الحجر وفيما مضى كانت عدن جزءا من الأرض الرئيسية ولكن الآن جعلها الناس جزيرة بذاتها .

تقع عدن فى مدخل البحر الاحمر ولها صلات تجارية مع الهند وتشتمل التجارة على الخيول والبهارات والأخشاب والفواكه وتقع جزيرة البحرين على بعد حوالى ٨٠ ميلا من رأس مسندم وتشتهر البحرين بصيد اللآلى وفى شمالها تقع ميناء البصرة على بعد ٦٠ ميلا حيث يلتقى نهرا الفرات ودجلة وتوجد بقربها آثار بابل الشهيرة ويقال بأنها كانت الفردوس فى زمن قديم .

الفصل ٦

وتقع هرمس فى جزيرة الجرها وكانت تدعى فى الماضى عقيرس وتخضع الآن للحكم البرتغالى وينتمى سكانها الى الدين الاسلامى وطبقا للتقاليد المتبعة هنا يعمى الملك أفراد أسرته من الذكور خوفا على عرشه وتتم هذه العملية عن طريق تسخين اناء من نحاس أصفر الى درجة عالية من الحرارة وتقريبه الى العيون حتى يفقد الانسان بصره .

وتنقص الجزيرة (هرمز) الخضرة والماء العذب وتكثر فيها الصخور ولا تتجاوز مساحتها ٣ أميال وتعتمد أساسا على الواردات من الجزيرة العربية وايران والهند لانها تقع فى ملتقى الطرق التجارية وتبنى البيوت فيها من الحجر وتخزن فيها العطور والبهارات كما توجد فيها خيول من سلالات نادرة وتستورد الهند منها التمور والحلويات والنقود الفضية .

وهناك تنسيق كامل بين الرحلات البحرية والقوافل البرية ويرجع الفضل الى هذا التنسيق فى ازدهار التجارة ، وتأتى القوافل مرتين سنويا عبر البر من حلب وطرابلس فى سوريا فى شهرى ابريل وسبتمبر حتى البصرة ومن هناك تواصل السفر الى هرمز عن طريق البحر ، ويعد التجار البضائع وينقلونها على الجمال والخيول والبغال فى قوافل ومعهم جنود لحمايتهم من قطاع الطرق وهكذا تتكون القوافل من ٥٠٠٠ أو ٦٠٠٠ نسمة على الأقل وتأخذ حوالى ٤٠ يوما للسفر وتجمع الماء للشرب من الآبار التى تقع فى الطريق على مراحل بين كل منها والاخرى ٣ أو ٤ أيام ويبيع التجار البضائع والحيوانات التى تحملها . وتستخدم القوافل الاكياس الجلدية لنقل الماء .

وتمكث القوافل فى طريقها فى الغابات حيث يعيش العرب الفقراء فى ظروف قاسية وليس لديهم الا ما يملكون من الابل والجمال ويأكلون من لحمها ويشربون من لبنها .

ويصحب هذه القوافل بعض التجار الصغار الذين يحملون معهم أشياء متفرقة كالعسل والتمور والغنم والدواجن الى البصرة والمدن الاخرى كبابل (تسمى الآن بغداد) ويسهر التجار فى مخيماتهم خوفا من نهب أموالهم وعند العودة يتجمعون بالقرب من البصرة ويرجعون الى حلب ومعهم بضائع مختلفة متنوعة وينتمى هؤلاء التجار الى شعوب شتى ما عدا البرتغاليين والاسبانيين ومنهم الفرنسيون والانجليز

والبندقيون وممثلوهم ويبقون فى كل من حلب وطرابلس ويقوم هـؤلاء التجار بـأسفار الى البنـدقية ولنـدن ويتم تفريـغ شحنـاتهم فى طرابلس حيث تنقلها السفن الى جهات اخرى كحلب كما تنقلها القـوافل البـرية الاخـرى وتتمتع حلب بـامتيازات وحـريات عـديـدة يضمنها لهم الاتراك .

ان الاقاليم العثمانية أقاليم واسعة ورغم ذلك نظم الاتراك نظاما كفؤا للاتصالات مع كافة أرجـاء امبراطوريتهم يـوميـا ويستخـدمون حمـام الزاجـل لنقل الرسائل والتى تربـط فى سـاق الحمـامـة بـواسـطة الحلقات ونظام الحمام الزاجل شائع فى تركيا على نطاق واسع ويـطير الحمام الى مسـافـات بعيدة كالبصرة وبابـل وحلب والقسطنطينية ويرجع من هذه الأماكن وهكذا يعبر مسافـات قـدرها ١٠٠٠ ميـل ورغم ان هـذه المسـافـة تبـدو طويلة بالنسبة لحجم الحمام الا انه أمر واقعى ، وقد رأيت حماما من هـذا النوع فى الهنـد عند صديقى من البندقية الذى جاء بـه الى الهند بسبب ميـزاتـه النادرة .

أعود الى موضـوع هرمـز التى ترتفع درجة حرارتهـا فى الصيف الى مـستـوى فـوق العادة للغاية ولا يمكن تحملها ولذلك يبقى الرجـال والنساء عـلى حد سـواء فى الاحواض الخشبية المليئة بالماء وهم عراة وتبقى رؤوسهـم فقـط فـوق سطح الماء ، وسقـوف بيوتهم مسطحة وفيهـا ثقوب يـدخل مـنهـا الهـواء كـمـا انهـم يستخـدمـون الادوات مثـل المنفاخ للتبريد .

وقـرية سيـرس ذات بيوت عالية مصممة لتخفيض درجة الحرارة بواسـطة الظلال كما تستخـدم فيها أنـابيب كبيرة لتصريف رياح باردة خاصـة الى الغرف الأرضية .

والطقس فى الشتـاء بـارد مثل البرتغـال ويخزن النـاس الماء فى صهاريج كبيرة كالمتبع فى اسبانيا وبعضها كبير للغاية خاصة فى القـلاع التى تخزن المياه لمدة سنـة أو حتى سنة ونصف سنة . وهذا هو التقليد المتبع فى موزمبيق أيضا . وهم يأتون بالماء من بحر البحرين عن طريق مكائن عميقة ويخرج الماء العذب من تحت الماء المالح للبحر ويصلح للشرب لانه من أحسن الانواع .

ويـوجد فى هـرمـز مـرض تسببه دودة شريطية تـؤثر فى الرجـل وتـشـبـه الديـدان الشريطية أوتار العود وتدخل الجسم عن طريق مياه الشرب وتسبب الورم والألم الشديد فى الرجل ويخرج جزء منها كـل يوم حتى تخرج كلها فى ظرف ١٢ يوما ولكنها اذا قطعت فان ذلك يـؤدى الى نتائـج وخيمة والم شديد وربما الموت فعـلى المريض ان يستريـح دون ان يحرك رجله وهذا أمـر صعب للغاية .

ونجـد الاشـارة الى هـذا المرض أو الدودة الشريطية فى مـؤلفـات البـوقـصـيص الصحراوى الذى كان اسبانيا من أصل عربى وولد فى قرطبة وتـوفى حـوالى ١١٠٦ أو ١١٠٧ م .ويقول الكاتب بـأن هـذا المرض يصيب الثيـران وتتسـرب الدودة بـين اللحم والجلد ووجدت خادما فى بيت الاسقف وقـد اصيب بهـذا المرض وأخرج ٣ أو ٤ ديدان .

وتـزور السفن البرتغـالية مـوزمبيـق وجـوا وتشـاؤل CHAUL وبنغـال ومسقـط وأماكن أخرى كثيـرة . ويقوم القبـطان البرتغـالى بصفقات تجارية مع الهند خاصة حول الخيـول ولا يسمح القبـطان لأحد ببيع الخيول رغم ان هذا الحظر ليس من ملك البرتغال ونظرا لأن ملك البرتغال بعيد عن هذه الاماكن فـان ممثليه المحليـين يمارسـون سلطتهم حسبما يشاءون وتباع الخيول فى الهند بمبلغ يتراوح بين ٥٠٠ و١٠٠٠ بـرداويـن PAR-DAUWEN ويقوم الناس من جـوا GOA بزيـارة هرمـز فى أشهر ينايـر وفبرايـر ومارس وسبتمبر واكتوبر .

الفصل ٧

يـقـع رأس كـارمـيـنـا (أوكاربيلا) على بعد ٣٠ ميلا

من هـرمز وهـو مدخـل لنهـر السند الذى ينبع من القـوقاز مع نهر الجانج الذى يسقط فى البحـر بعـد ان يجـرى عبـر أراضى مملكة بنغال . والهنـد بلد غنى وبهـا موارد طبيعيـة مختلفـة ويصنـع فى الهنـد أحسن نوع من النسيج كمـا تـوجد فيهـا أشجـار الجـوز والتوابل وغابات كثيفة .

وبـالنسبـة لصيـد اللؤلؤ فليس هنـاك مكان أحسن من البحـرين كمـا يـوجـد هنـاك الذهـب والفضـة والمـعـادن الاخرى وملك الجزيرة يحافظ على هذه الثـروة تحت الارض ولا يسمـح بتنـقيـب الأرض لاستخراجها .

وفن النحت فى الهنـد وفى سيلان تطور الى مستوى عال ويعتبر الحرفيـون الهنود من أمهر الحرفيـين ومنتجاتهم فى العاج والمعادن نالت شهرتهـا عبـر العـالم وبعـث الى ملك اسبـانيا بتمثـال منحـوت فى العاج الهندى الذى يحتفظ به بكل الحرص والاعجاب .

□ □ □